

● المبحث الأول: نبذة عن حياة عبد الحميد ابن هدوقة:

هو واحد من أولئك الذين حملوا على عاتقهم عبء شعوبهم، ولم ييخلوا لحظة بحبر أقلامهم، بل أنفقوه بقوة وسخاء، فتركوا بذلك بصمة جعلت الأدب الجزائري الحديث يسمو، ويحتل مكانته بين الآداب، فكيف للأدب أن يتجاهلهم وقد رسخت أسماؤهم في العقول وتشبثت بالقلوب؟!.

إنه القصصي والروائي "عبد الحميد ابن هدوقة"، ابن مدينة المنصورة التابعة لولاية سطيف سنة 1925م في قريته نشأت كتاباته، وفي الريف تفتقت ملكاته، تلقى تعليمه الابتدائي بالمعهد (الكتّاني) في "قسنطينة"، ليسافر إلى مرسيليا وعمره سبعة عشر سنة، مكث هناك حتى عام 1949م، ويعود بعدها إلى أرض الوطن، فبقي فيها مدة إلى أن حدّد سفره نحو وجهة جديدة إلى "تونس" أين قضى أربع سنوات مكثاً على دراسة الأدب في جامع الزيتونة، ثم يعود إلى الجزائر عام 1954م مدرسا لمادة الأدب في المعهد "الكتّاني"، فجمع "ابن هدوقة" بين نضاله ضد الاستعمار ومحاربة الأمية والجهل، وغرس بذور العلم واللغة والأدب، ممّا دفع الاستعمار الفرنسي إلى ملاحقته فأثر عليه ذلك بدنيا ونفسيا، ونال حظّه من الجهد والتعب، ثم انكب على دراسة الأدب، يكتب المسرحيات باللغة العربية، ومع فجر الاستقلال عاد "ابن هدوقة" إلى أرض الوطن ليعمل في الإذاعة الوطنية، وتابع مسيرته باحثا في الأدب حتى توفي سنة 1996م.¹

رحل "ابن هدوقة" وبقيت أعماله شاهدة على قدرته وعطاءه الأدبي في جانبه الموضوعي والفني، فكان من المتميزين في كتابة القصة، فامتلك بذلك رؤية قصصية، نجدها في "ضلال جزائرية"، "الأشعة السبعة"، "الكاتب وقصص أخرى"، إضافة إلى هذا فإنه الشاعر صاحب ديوان "حامل الأزهار" 1952 و "الأرواح الشاغرة" 1967، الذي يقول في إحدى قصائده :

"أيتها الشمس التي أحببتك

وكنت رفيق الذكريات

والغدوات والروحات

أيتها الشمس التي أحببتك

¹ ينظر: عبد الحميد ابن هدوقة: رواية ربح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط، 1976، 3م.

هل تدركين وأنت تغييبين

كثافة العذاب

عذاب العيون المفتوحة في الظلام

أيتها الشمس التي أحبيتك

وأضعتك...

حدّثي المبصرين في كواكب أخرى

أن عيون من في الأرض

مفتوحة

في الظلام

تتعذب"¹

إنه رائد الرواية العربية الجزائرية الحديثة، وصاحب: "نهاية الأمس"، "بان الصبح"، "رياح الجنوب" التي تعد النشأة الجادة للرواية الجزائرية المكتوبة بلسان عربي، فيها صورة ومعالن روائي اسمه "عبد الحميد ابن هدوقة".

¹ : عبد الحميد ابن هدوقة: الأرواح الشاغرة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط، 3، ص 45، 44.

• المبحث الثاني: ملخص رواية رياح الجنوب

رواية "رياح الجنوب" تحكي مأساة فتاة جزائرية ريفية اسمها "نفيسة"، تدرس بالعاصمة وأثناء عودتها إلى الريف لقضاء إجازة الصيف، اصطدمت بواقع مرير، زاده لفح رياح الجنوب مرارة، ومما زاد في ضيقها سجنها في دار أبيها وفكره المسيطر عليها.

"فعابد ابن القاضي" - أبو نفيسة - هو رجل انتهازي رأى في تزويجها من "مالك" شيخ البلدية، حلاً لكي لا يشاركه أحد في أرضه بعد أن بدأ الحديث يدور حول "الثورة الزراعية" والإصلاح الزراعي، وهذا الزواج يتيح له أن يحافظ على أملاكه ومكانته في القرية، فقررت الفتاة أن تثور على هذا الوضع - لأنها تعلمت أن تقرر مصيرها بيدها - ولكن ثورتها كانت منصبة على أمها، التي بقيت تائهة تتخبط في أفكارها بين موقفين أحلاهما مرّاً، أن تخضع لأمر زوجها أو تستجيب لرغبة ابنتها، وماذا عساها تفعل أمام أنانية هذا المتسلط؟.

وخلال هذا التصعيد والضغط الكبيرين، ظلت نفيسة حائرة، ماذا تخبئ لها الأيام؟! وفجأة خطرت على بالها فكرة مفادها أن تكتب رسالة إلى خالتها بالجزائر، لتطلعها على ما يجري وعندما أتمت كتابتها أعطتها لـ: "رابح" - وهو راعي الغنم - ليأخذها إلى البريد مما أتاح له الفرصة أن يتعرف على نفيسة ويتعلق بها أكثر إلى درجة أنه أصبح يتوهم ويغوص بعيداً بأفكاره كان يتمتم وهو في طريقه إلى مكتب البريد، ولما عاد في المساء، أصبح اهتمامه منصبا على الضفة الأخرى، على بيت "ابن القاضي"، أو بالأحرى غرفة "نفيسة"، كان يفكر في ذلك أثناء لحظات من التوتر مرّ بها أزالته عن حيوانيته كل القيود الأخلاقية، لكن رغبته لم تكتمل وسرعان ما تحولت إلى وابل من الشنائم بعد أن اقتحم الغرفة وكشف أمره إذا نعتته بالجرم والراعي القذر.¹

غادر رابح وكله حيرة مما آل إليه الوضع، بعد أن نهزته هذه الفتاة المتكبرة التي انحالت عليه كلماتها كضربات السيف، الأمر الذي دفعه إلى أن يغير مسار حياته، ويعزف عن رعي الغنم منذ تلك اللحظة وامتنع مهنة أخرى لا تكاد تكون أحسن من الأولى. مهنة يقوم من خلالها بجمع الحطب وبيعه.

¹ : عبد الحميد ابن هدوقة: رواية رياح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، ص1976م.

"نفيسة" الفتاة التي ظلت حلاً لأكبر مشكل واجه أبيها، تساقطت الأفكار عليها متضاربة في ذهن شارد فأصبحت طريحة الفراش نتيجة لاختلاط الأمور والأفكار خاصة حين نذكر حال أختها الكبرى "زوليخة" التي كانت هي الحل في يوم من الأيام، إذ كانت خطيبة لنفس الشخص - "مالك" شيخ البلدية - حين كان مناضلاً في جيش التحرير، لكنها ماتت في حادث انفجار القطار القادم من الجزائر .

استفسرت نفيسة من أخيها على جميع المعلومات المتعلقة بالطريق الذي تسلكه وأي محطة هي الأقرب إلى القرية بعد أن راودتها فكرة الهروب من البيت.

دقّت ساعة الهروب وحن وقت مغادرة البيت، غادرت متخفية بأحد برانس أبيها، ولأن الطريق ملتوية، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه شاءت الأقدار أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد كان الطريق شاقاً وطويلاً، مخفوفاً بالأهوال والمخاطر، آخرها لسعة ثعبان تعرضت لها أفقدتها وعيها، وجعلت الموت يحذق بها لولا قدوم الفارس المغوار "رابح" الذي وصفته في يوم من الأيام "بالراعي القذر" بعد أن شغفته حبا.

طار بها "رابح" إلى بيته أين توجد أمه "البكماء" واعتنيا بها إلى أن تماثلت للشفاء، وقع صراع حاد بين الراعي "رابح" و"ابن القاضي" حين علم أن ابنته تتواجد في بيته أدى بهما إلى الغثيان والانطراح أرضاً بعد ثأر الأم البكماء لابنها من "ابن القاضي" بضربة قاضية بفأس على رأسه، ثم غادرت "نفيسة" البيت متجهة نحو بيت أبيها بعد أن كانت تنوي الهروب ذلك اليوم.¹

¹: المصدر السابق.

• المبحث الثالث: علاقة المجتمع بالأدب والنص الروائي

اتّسم الأدب بأنه أكثر الحقول خصوبة ولا سيما في علاقته بالواقع الإنساني، فهو يلعب دورا مهما في حياة الشعوب، كونه ينشر الوعي القومي والسياسي والاجتماعي بين أفراد المجتمع، كما أنه ينقل أحاسيس ومشاعر الإنسان، ويخلد الأجداد الوطنية، يقول محمود أمين العالم: (إن الأدب تعبير عن الحياة، ولكنه خلق وإبداع لما كذلك لأنه إضافة مؤثرة فيها، إضافة رؤيا وإضافة اكتشاف، تفضيان إلى تغيير فيها).¹

استخلص محمود أمين العالم - انطلاقا من هذا التعريف - أن لكل مجتمع أدبه الخاص، يتعلق بظروفه ومستجداته يعبر عن مشاكله وقضاياها، وعلى ضوء تلك التغييرات ينبثق الخلق والإبداع.

فالأديب عضو في جماعة، إنه كائن صلب أو مجموعة من العلاقات الاجتماعية، إذ لا يوجد للفرد المطلق لأن الفرد خارج المجتمع هو خارج نفسه، والأديب لا يبدأ من الصفر فهناك مواد سابقة مثل العادات والتقاليد والموروث ودرجة التطور لاجتماعي والأدبي كل هذه الأمور تؤثر في الأديب أي أنه يتأثر بالجماعة أو الطبقة التي ينتمي إليها كما يؤثر فيها.

ومن هنا تتأسس مهمة الأديب وتبرز مواهبه في التعبير عن خاصيات مجتمعه فكانت مسؤولياته تجاه قضية أساسية لا يستهان بحملها، فهو الأداة التي يعبر بها المجتمع عن نفسه أو أداة الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها هذا الأديب، صحيح أنه هو الذي ينتج العمل الأدبي ولكن لولا المجتمع لما استطاع أن يفعل، ثم إن الإبداع فعالية اجتماعية وإن بدا فرديا للوهلة الأولى، وطالما هو عضو في جماعة يُؤثر فيها ويتأثر بها فهو يُقدّم إنتاجه إليها.

والأديب حين يكتب ويدع، كي يعبر عن علاقته بالواقع أو بالمجتمع أو بالعلم، إنه يشعر أن هناك حلا ما في تلك العلاقة، وهذا ما يدفعه إلى تجسيد رؤية جديدة للمجتمع أو العالم متوسلا شكلا من أشكال الأدب، فاللحظة التي يكتب فيها ليتصل بالآخرين ينتقل فعله من الإطار الفردي إلى الإطار الجماعي أو الاجتماعي، فالعمل الأدبي جهد فردي متميز لكن حصيلته الفكرية والشعورية مستمدة من علاقة الأديب بالمجتمع الذي يعيش فيه، حيث كانت مهمته - الأديب - لا تتوقف عند حل المشاكل ووصف الأوضاع الاجتماعية بل تتعدى ذلك كله فهو يوجه ويصحح، ويهذب

¹: محمود أمين العالم، ملاحظات حول نظرية الأدب وعلاقتها بالثورة الاجتماعية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الشركة الوطنية (الشعب والصحافة)، الجزائر، ص 17.

حينما يعكر جوّ ما صفو الحياة، أو يهدد مصالحها إيماناً منه بأن مهمته صعبة وعمله مضمّن لا يخلو من الهفوات، التي يقف عندها الناقد الأدبي.¹

وقد تعددت الأجناس الأدبية وتنوعت بين شعر ونثر، فالأول منها تمثله الملحمة والقصائد بأنواعها والثاني يتمثل في الأقصوصة والقصة والحكاية ثم الرواية كآخر فن سردي شهدته الحياة الأدبية.

انطلق الفن الروائي الجزائري من شبه العدم، فهو حديث النشأة يؤرّخ له بداية من فترة ما بعد الاستقلال تحديداً من السبعينيات مع صدور الرواية العربية الجزائرية لكتابها "عبد الحميد ابن هدوقة" تحت عنوان "ريح الجنوب".

اتسمت مرحلة ما قبل الاستقلال بظهور أعمال روائية المتناثرة من حيث تدني مستواها الفني وضعف الحبكة الفنية فيها، ذلك راجع إلى الأوضاع التي عاشتها الجزائر، حيث شكلت الحقبة الممتدة من عام 1945م إلى 1962م ميداناً خصباً لتفتح الفن الروائي كعمل أدبي يعكس مضمونه أهم التطورات التي شهدتها الشعب الجزائري إلى حين استرداد حريته المسلوبة والاستقلال المفقود.

تمثلت هذه الأعمال في رواية "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" لـ: "محمد بن إبراهيم بن مصطفى". ورواية "زينب" لـ: "محمد حسين هيكال" إضافة إلى "غادة أم القرى" لـ: "أحمد رضا حوحو".

لم يستطع الفن الروائي الجزائري مواكبة المسار الفني العربي، ذلك لأنّه بقي حبيس الموقف الإيديولوجي الذي كانت تبناه "جمعية العلماء المسلمين" وبقائه قيد المبادئ التي نصت عليها رغم محاولاته قدر الإمكان تطوير أدواته الفنية، وقد لعب هذا السبب الدور الكافي في تأخير الكتابة الروائية حتى 1967م.

تميزت مرحلة ما بعد الاستقلال عن سابقتها بما طرأ عليها من تغيرات وتحولات قاعدية، شملت جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية خاصة الأدبية منها، فتعتبر السبعينات من أبرز الفترات التي نهض فيها الفن الروائي على حساب السنوات العشر الأولى، التي عكبت الاستقلال والتي مثلت بداية التطلعات والانفتاح على الآفاق العربية المعاصرة.

¹ ينظر: شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص74، 75.

إذ حاولت رواية "اللاز" لـ: "الطاهر وطار" و تجسيد العمل الثوري من أجل بث الروح فيه من جديد بالعودة للماضي ونقل أحداثه كما عكست الآثار النفسية والاجتماعية وهي في محتواها ذات اتجاه إيديولوجي فني.

كما ظهرت رواية "رياح الجنوب" لـ: "عبد الحميد ابن هذوقة" معلنة البداية الفعلية للرواية الجزائرية خلال الحقبة السبعينية مرتكزة على أسس فنية وجمالية، اتخذ منها الروائيين مسارا لتجربتهم كما أنها اتخذت لنفسها مكانا في واجهة المكتبات الجزائرية ميلا إلى التجسيد الواقعي لأحوال المجتمع الجزائري.

تعددت اتجاهات الرواية العربية الجزائرية فصنفت حسب معايير ومقاييس، ذلك ما أدرجه المؤلف "محمد مصايف" في كتابه "الرواية العربية الجزائرية بين الواقع والالتزام" حيث قدم لكل اتجاه مثاله من الرواية الجزائرية فقد قسمها إلى: واقعية، أيديولوجية، فلسفية.... وغيرها. ولكن على الرغم من هذا التمايز إلا أنها تصب في قالب واحد تعالج موضوع شامل، حيث أدى الفن الروائي عمله بإخلاص، يسرد الواقع الاجتماعي ويعكس الحياة الجزائرية بكل حذافيرها، يصف ويحلل سعيًا وراء تحسين الظروف السائدة، وبحثا عن حلول واقتراحات للقضايا القائمة. ومن هنا انطلقت العلاقة القائمة بين المجتمع الجزائري والفن الروائي، حيث كان هذا الأخير المرآة العاكسة للحياة والمترجم الخاص لها.

• المبحث الرابع: تجليات المنهج الاجتماعي في رواية "رياح الجنوب":

حين نحاول التأريخ للنقد الجزائري فإننا نلاحظ أنه كان نتيجة مخاض طويل، دخل معركته جملة من النقاد والدارسين والمفكرين الأدباء، إذ كان في بداية الأمر حبيس إكراهات إيديولوجية خاضع لسلطة اعتبارات ثقافية خاصة من خلال استحضار المنجز النقدي الغربي، ولكن بعد بروز جيل من النقاد لا يتنكر للخصوصية الثقافية يسعى لبلورة تفكير نقدي يواكب مسيرة الحداثة ليضمن ذلك التراث، فيقدمه بطرق مختلفة، تُرغب فيه ولا تُنفّر، تماشياً مع المتطلبات الفكرية والثقافية للأجيال الجديدة والتحولت الكبرى التي صارت تطبع الكتابة الأدبية.

(أتاح هذا الاستدعاء بروز نقد جزائري لم يعد ظلالاً لما هو متداول في المشرق العربي، أو نسخة معادة للنظريات التقليدية، بل نقداً يجدد أدواته باستمرار وتغلب عليه روح تأصيلية، تمنح له مشروعية الوجود. فصار محط الأنظار يتوقع منه - مع المنجز المغربي - أن يقترح طرقاً جديدة ويفتح آفاقاً بكراً، لم يسبق للنقد العربي أن اخترقها، وذلك بحكم علاقته الخاصة مع الغرب).¹

(ضمن هذا المساق برزت أسماء جزائرية لها وزنها، في الخطاب النقدي العربي، تباينت مصادر معرفتها وتشعبت، ولكنها تلقي في ضرورة منح النتاج الأدبي الجزائري حقه من الدرس، لأن مسوّغ وجوده مرتبط بالبحث عن خصوصية الكتابة الأدبية في الجزائر، والتحولت الجديدة التي أخضعت للتجريب المستمر).²

فهناك دراسات تستدعي تطبيق الإنجازات النقد الغربية على تلون مشاريعه وتنوع اتجاهاته على المتون السردية الجزائرية خاصة الرواية كجنس أدبي.

أولاً: اجتماعية العنوان:

إن أول ما ينبغي الإشارة إليه في مستهل دراسة رواية "رياح الجنوب" هو عنوانها الذي يحمل في كنهه عدة دلالات وقضايا اجتماعية مختلفة إذ يهدف الروائي من ورائه للالتفات إلى الحياة التي تحياها الأسرة الجزائرية خاصة الريفية، (هذا

¹ منصور مصطفى: مقال من مجلة النقد الدراسات الأدبية واللغوية، العدد الأول، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، جامعة سيدي بلعباس، 2005، ص 201.

² نفس المصدر، ص 201.

الريف الجزائري الذي أراده المؤلف أن يكون شائعا حتى يشمل القرى الجزائرية كلها وبخاصة قرى الجنوب، حيث تكثر الرياح الهوجاء، وتشتد العواض الطبيعية وتقسو الأرض على أهلها حتى يفقد أغلبهم لقمة العيش، ويستسلموا للتشاؤم واليأس، دون أن يفقدوا مع ذلك الأمل في هذه الأرض، والحب والإخلاص والوفاء لها.

فكان موضوعها إذن هو الريف الجزائري بما يطبعه من قساوة الطبيعة وما يتطلبه من صبر ووفاء وتضحية ويشكله من نفسية ساذجة ومتخلفة في أغلب الأحيان.¹

وقد اختلف "محمد مصايف" مع كثير من النقاد، وبخاصة "عبد الله الركيبي" في أن الرواية - ربح الجنوب - لا تتناول موضوع الثورة المسلحة ولا آثارها ولا الثورة الزراعية ولا حتى الإصلاح الزراعي إلاّ عرضا ويؤكد ذلك بقوله: (فشعار الثورة لم يكد يرد في رواية "رياح الجنوب" على أي لسان وشعار الإصلاح الزراعي نفسه لم يرد في الغالب إلاّ على لسان المعلم "الطاهر" و"مالك" شيخ البلدية من حين لآخر وفي سلبية ظاهرة).²

ويؤكد من جهة أخرى أنّ المحور الأساسي الذي تدور حوله الرواية تعبير عن مرحلة اجتماعية وحضارية يمر بها المجتمع الجزائري في الريف، وهو المحور الذي يتمثل في هذه النفسية المحافظة التي حملها "ابن القاضي" وهي نفسية الطبقة الإقطاعية التي عاشت الثورة الجزائرية دون أن تندمج فيها اندماجا كلياً.

ثانياً: التجليات الاجتماعية من خلال الزمان والمكان

إنّ التحدث عن قرية "ابن هدوقة" وما تميزت به من ظروف (فهي القرية النموذجية للريف الجزائري خلال مرحلة الثورة المسلحة إلى نهاية السبعينيات وظهور الثورة الزراعية والحركة الإقطاعية الاشتراكية، إذ تميزت هذه القرية عن المدينة بعدة مميزات أساسية التي أحسن المؤلف تحديدها وألحّ عليها في المناسبات المختلفة، وهي التي شكلت الإطار العالم الذي تحركت فيه شخصيات الرواية على اختلافها، ولعلّ أبرز مميزات هذه القرية هو انعدام المرافق الضرورية للحياة وليس هناك مرفق أكثر ضرورة من الماء والعمل والطبيب)³. هذه المرافق كانت منعدمة فعلا في قرية "ابن هدوقة" هذا ما أفضى إلى

¹ :الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام، محمد مصايف، ص108.

² : الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام، محمد مصايف، ص180.

³ : ينظر المرجع نفسه، ص181.

إثارة نقاشات حادة من قبل سكان القرية حول الوضع المأساوي محاولين تحديد المسؤوليات وبيان الصعوبات، كما تبين ذلك في قول "الحاج قدور"، حين قال: (أن كمية الماء في القرية لا تكفي حتى للشرب).¹ وإذا انعدمت النظافة وانتشر المرض، وساءت أحوال الناس الصحية والاجتماعية، ويضاف إلى هذا الوضع السيئ انعدام الطبيب، الذي يداوي المرضى ويسهر على صحة الأهالي، هذه هي المميزات التي تجعل من هذه القرية مقبرة لأحياء في حكم الموتى.

ولا غرابة أن رأينا في هذه الحالة "نفيسة" التي عاشت في العاصمة سنوات وشاهدت الحياة المدنية، تعلن عن عجبها في هذه الكلمات: (لست لأدري حتى الطبيب لا وجود له في هذه القرية الخالية).²

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من وضع مزري، الجمود الذي ساد القرية أو ما أطلقت عليه "نفيسة" في بعض ملاحظات "الصمت" لا هذا الصمت الذي يقابل الكلام، بل الصمت الذي يرادف الموت، حتى أن نفيسة لم تكد تفرق بين حالتها في هذه القرية وبين حالة الموتى، فقالت: (قد تكون يقظة الموتى في أجدائهم تشبه يقظتي هذه: جدران أربعة، وسقف من خشب، وصمت، أكاد أختنق من هذا السكون وهذا الصمت).³

ثالثاً: التجليات الاجتماعية من خلال شخصيات الرواية:

تتجلى المظاهر الاجتماعية أيضاً في الرواية من خلال حركة شخصياته بأدوار متفاوتة بين رئيسية وثانوية.

"فابن قاضي" وهو شخصية أساسية في الرواية إذ يمثل الإقطاعية العقارية خير تمثيل، يمثلها في ذكائها ونشاطها وانتهازيتها، وقدرتها على كتمان حقدتها خدمة لمصلحة عاجلة، ويؤكد "ابن هدوقة" على براعة "ابن القاضي" في التكتّم وإخفاء غضبه ونياته السيئة، وهو بالإضافة إلى هذه البراعة التي يلجأ إليها عند الحاجة، رجل عمل بكل معنى الكلمة، فلا يكاد يُفتر له عزم، أو يُقل من إرادته فشل لا يمل ولا يكلّ كما وصفه خصمه "مالك" شيخ البلدية فيقول: (مهما كانت عيوب هذا الرجل - ابن قاضي - فهناك خصلة يتميز بها لا يمكن أن يناقش فيها أحد، وهي أنه رجل عمل

¹ الرواية "ريح الجنوب"، ص 79.

² الرواية، ص 143.

³ نفس المصدر، ص 158.

وإقدام¹، مما بؤاه لأن يكون شيخ للقرية وهذا لم يبرئه من مواقفه المخزية تجاه الثورة المسلحة، كما تميزت شخصيته - ابن قاضي - بالتسلط والجبروت وقساوته في التعامل مع أهله، فكان الأمر الناهي صاحب السلطة الأبوية التعسفية إذ(يمارس نفوذا قويا على أبنائه في تقرير مصيرهم، ويجعل من شخصية محورا يدورون حوله، يرضون بأرائه وأفكاره ويقتنعون بنصائحه وإرشاداتهم، وفيما عدا طاعتهم له يقضي الأبناء عمرهم في صمت لا يتوقعون مصيرا أفضل من الذي عرفه والدهم، وذلك عندما يستولي على حقهم في تدبير أمر الزواج أو الطلاق أو الاستقلال بالذات).² فالأب - ابن القاضي - بتدخله العنيف يواجه هروب ابنته "نفيسة" بسبب اعتراضها عن الزواج من "مالك" رئيس البلدية(لقد كانت الصدمة عنيفة تحولت بعد دقائق إلى غضب عام ضدّ الزوجة المسكينة "خيرة" التي نالت من اللكم ما أشرف بها على ملازمة الفراش).³

أما "نفيسة" وهي شخصية رئيسية أيضا في الرواية تمثل المرأة المثقفة التي عاشرت نوعا من التطور، والرقى من خلال الحياة الجامعية في العاصمة، فتعزو إلى ما آلت إليه المرأة في الريف الجزائري وحرمان وخضوعها لسيطرة الرجل الجاهل المتمسك بالعصبية وما يعرف بالأعراف والعادات والتقاليد، إذ تلهج معبرة عن حالتها النفسية التي آلت إليها فيقول:(حياتي أيضا أراد أبي أن تكون كالطريق الحديدي إن خرجت عنه وقعت في الهلاك).⁴ هذا ما يوحى على السيطرة وكبت الحريات والحرمان من أبسط الحقوق من قبل والدها حتى أنها لم تتمكن من إبداء رأيها تجاه الزواج من شيخ البلدية "مالك" الذي أرغمها عليه والدها - ابن قاضي - وهو زواج مصلحة بالدرجة الأولى حفاظا على أرضه وأملاكه.

تأثر "نفيسة" بالحياة الاجتماعية العاصمة المبنية على الحرية في تقرير مصير شؤون الحياة أدى بها إلى مواجهة قرار أبيها بالرفض والتمرد على سلطته ساقها إلى الهروب من البيت، متخذة من بيت خالتها في العاصمة وجهة لها، إلا أن الظروف التي واجهتها عرقلة خطة الهروب وأدت بها إلى الرجوع للمصير المجهول.

¹ :الرواية،ص166.

² : عبد الحميد بوسماحة، الموروث الشعبي في روايات عبد الحميد ابن هدوقة، دار السبيل، الجزائر، 2008، د، ط، 44، 43.

³ :الرواية،ص256.

⁴ :الرواية،ص216.

رغم موقفها الرافض للحياة المساوية، التي يُعاشها سكان القرية في جميع جوانبها ومحاولتها لتحسين ذلك لكنه موقف انفعالي لأن الظروف عاكستها في أن تتخذ أي موقف يصل إلى حدّ تحسين وضع المرأة في الريف الجزائري.

كذلك هو الحال مع شيخ البلدية "مالك" وموقفه الذي لم يكن كافيا لمواجهة إقطاعية ابن قاضي المتعاضمة، وما قدمته شخصية الراعي "رابح" الذي لم يكن هو أيضا باستطاعته أن يكون له موقف شمولي على الرغم من تركه الرعي عنده - ابن قاضي - لينتقل إلى حرفته الثانية، حرفته كحطاب دون أن يسأل عما يجري في القرية، وعما يقول الناس فيما يشاع من مصاهرة ابن القاضي "مالك" وذلك دفاعا عن شرفه وكرامته بعد الإهانة والرفض التام الذي قابلته به "نفيسة" حين عرض عليها الزواج قائلة: (أخرج من هنا أيها المجرم، أيها القذر أيها الراعي القذر)¹، وهذا بسبب ضعف مستواه وفقر حاله وهو الذي كان مغلقا لا يعرف شيئا على حد تعبيره: (أجهل حياتي وحياة الناس عشت مع الغنم فصرت واحدا منها، ما الفرق بيني وبين أي كبش).²

من الشخصيات المحببة التي لا يمكن إغفالها في هذه الرواية، والتي أن كانت لا تضيف إلى هذا العمل الأدبي شيئا من الناحية الفلسفية فإنها ترفع من قيمتها من الناحية الفنية، شخصية "الطاهر" المعلم الذي (يبدو أنه ذو ثقافة عالية والأمر الوحيد الذي كان يشغل دوماً باله هو المجتمع في جانبه الروحي والعقلي والأخلاقي أي في جانبه الثقافي الذي يحمل لواء الإصلاح وهو متأكد أنّ هذا المجتمع لا يمكن أن تكون إلا بطريقة واحدة بديهية تتمثل في التعليم. وحتى الحرية التي يعترف أنها شيء جميل جدا لا يمكن الحصول عليها بالسلاح، ولكن بإعداد المجتمع نفسيا وخلقيا وثقافيا ليكون في مستوى الحرية).³

¹ :الرواية، ص108.

² :الرواية، ص109.

³ :محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص22.

رابعاً: تجليات المظاهر الثقافية في الرواية:

1: الطرق الاحتفالية من خلال رواية "ريح الجنوب":

إن العادات والتقاليد الشعبية ظواهر سائدة في كل بيئة سواء أكانت تقليدية أم حديثة، وتظهر في العلاقة الوثيقة بين الفرد والجماعة، وترتبط بالقدرة على التكيف مع ظروف البيئة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية وذلك من أجل البقاء والحفاظ على الحياة. وللعادات والتقاليد الشعبية وظائف متنوعة منها الاجتماعية التي تتمثل في الترابط العضوي بين أعضاء الجماعة وتنظيم العلاقات فيما بينهم والتميز عن الأجانب، ومنها الاقتصادية كاختصار الجهود والزمن، ومنها الأخلاقية كتوجيه سلوك الفرد وتقويمه.

أولاً: مراسم الزواج

يعتبر الزواج الشعبي من أهم العناصر التي طرحها المؤلف، إذ عرج على هذا الموضوع بشكل سطحي ولم يتطرق للوصف الدقيق لمراسيمه.

إذ عالج المؤلف مسألة الاختيار في الزواج، في ريح الجنوب عندما فرض والد "نفيسة" "مالكا" زوجها لها (أبوها يقرر منعها من العودة إلى الجزائر، من مواصلة الدراسة يقرر تزويجها، يختار هو من تتزوج به)¹، ذلك أن الرجل خاصة الأب و هو صاحب السلطة الفعلية في المؤسسة العائلية.

وتختلف لدرجة اعتماد الزواج الشعبي على الأغراض الاجتماعية والاقتصادية من عائلة لأخرى بينما يتطلع "ابن قاضي" من خلال الزواج هذا إلى حماية الأرض بالدرجة الأولى (إن مصير الملكية رهيب بالنسبة للملاك، وهو واحد منهم فإن الوسائل الكفيلة للحفاظ على أرضه من الآن... والوسيلة لإبقاء ملكان عليه هي مصاهرة شيخ البلدية)².

¹ :الرواية، ص88، 87.

² : نفس المصدر، ص91.

ثانياً: مراسيم الوفاة:

تعرض المؤلف - ابن هدوقة- من خلال روايته ريح الجنوب إلى مراسيم الوفاة، محاولاً من خلالها أن يعرفنا بمدى ارتباط أفراد الجماعة وتكافلهم، وأن يندد كذلك ببعض الظواهر السلبية التي عاشت في البيئة الشعبية.

فتعلق الأمر بالعجوز "رحمة" التي وافتها المنية بعد عمر زاهر، زاهد بالكد والعمل وحسن الخلق، إذ جاء خبر وفاتها في الليل (وخبر الليل ينذر أكثر مما يبشر)¹، وتم الإعلان عن خبر وفاتها في مكان شعبي من قبل رئيس البلدية الشيخ "مالك" (وكان مالك في ذلك الوقت المبكر ماشياً في الطريق المؤدي إلى المقهى "مقهى عمي الحاج" ليخبر سكان القرية بموت العجوز رحمة)²، لتنتقل مراسيم الوفاة بتحضير القبر (قل لرابح والطحاوي أن يقوموا بتحضير القبر)³، وكذلك شراء الكفن (أما السعيد ابن العربي فليتوجه إلى القرية المركزية لشراء الكفن)⁴، وتحديد وقت الدفن (أخبر الناس أن الدفن يكون بعد صلاة الظهر)⁵، وهكذا ومن خلال سرد "ابن هدوقة" للأحداث بتسلسل ودقة الوصف وسبك اللغة يكون قد وضع لنا مدى اهتمام سكان القرية ببعضهم خلال المناسبات والتجمعات وتكافلهم وتعاونهم واجتماعيتهم، كما وضع أيضاً الأثر البالغ الذي تركته العجوز رحمة في نفوس الناس (ومن بين هؤلاء رابح الراعي والذي كان أصغرهم سناً وأشدّهم معرفة بالفقيدة مما جعله في ذلك اليوم أحزن الناس، فلم تنطلق نغمة من نايه ولا ضحكة من حلقة)⁶، وإقبال الناس الكثيف على منزلها وتوجههم نحوه زمراً زمراً يدل على مكانتها الهامة بينهم والارتباط الشديد بخصالها وقيمتها التي أقامت عليها حياتها.

¹: الرواية، ص 145.

²: المصدر نفسه، ص 161.

³: المصدر نفسه، ص 166.

⁴: المصدر نفسه، ص 166.

⁵: المصدر نفسه، ص 166، 167.

⁶: المصدر نفسه، ص 171، 172.

• أشكال التعبير الأدبي من خلال رواية "ريح الجنوب":

يمثل ميدان الدراسة الشعبية نقطة البداية، ويتميز عن أنواع المعارف الأخرى بأنه يعبر عن جوهر تفكير شعب معين ومن المعروف أن أدب كل أمة يبدأ دائماً من الأسطورة والحكاية الشعبية قبل أن يصل في تطوره إلى النضج الفني من حيث الأدوات وتنوع أشكال التعبير الأدبي بين أمثال وشعر وأدكار.

• المثل الشعبي:

يتداول الناس ولا سيما الأميون منهم الأمثال الشعبية في مختلف المناسبات، ويحاولون صياغة آرائهم وأفكارهم بواسطتها بعد أن عجزوا في كثير من الأحيان التعبير عنها بالقراءة والكتابة، وتتميز الأمثال الشعبية بالإيجاز في الألفاظ والدقة في المعنى التي تستمدّها من التجربة الجماعية، وعلى هذا الأساس كان انتشار الأمثال الشعبية أقوى في الريف منه في المدينة.

فكان بذلك لسكان القرية - قرية ابن هدوقة - لغتهم الرمزية التي تتخللها الأمثال الشعبية لتضفي عليها نغمة أو أنغاما تجعل منها سلاحا ذا وقع في الآذان والنفوس، وتعامل أهل القرية بهذه الأمثال ما يدل على شيء إنما يدل على أنهم مجتمع واحد يتميز بالاجتماعية والألفة وروح المحبة والإخلاص والتناصح فيما بينهم، مجتمع يفهم فيه الواحد مقصد الآخر.

يبين المثل القائل (جرح الكبد لا يضر إلا صاحبه)¹ في مجتمع قرية ابن هدوقة العلاقة القائمة بين الآباء والأبناء وحينما يواجه الأبناء المتاعب تنعكس آثارها على والديهم قبل غيرهم من الناس وقد كانت الأم "خيرة" - من خلال المثل السابق - شديدة الرقة على حال ابنتها واعتبرت أساليبها في المعاملة انحرافا عن المؤلف.

¹ الرواية، ص 28.

كما يدل المثل (إذا شبت للكرش تقول للرأس غني)¹ على حالة الجماعة النفسية التي وجدت في الموسيقى الوسيلة التي منحنتها القدرة على التعبير بالحركة والحيوية عن حاجتها إلى الفرار من رتابة البادية وركودها بسبب قسوة الطبيعة وظلم الإقطاع.

التناصح مبدأ أساسي يعتمد عليه سلوك الإنسان الشعبي حين يمارس أحداثا في حياته اليومية، فقد ظلت العجوز رحمة متحفظة بجدها للعمل اليدوي واحترامها له لأنها استمدت منه أصالتها وعفويتها وواقعيتها، وبهذا فهي تقدم نصائحها الدائمة لجميع سكان القرية خاصة النساء منهم كما فعلت مع نفيسة الفتاة المتمردة عن قوانين البيوت والعمل الحر في البدوي فتواجهها بلين فتقول: (تعلم حرفة وأخفيها)² على أن الحرفة اليدوية تقوم بدور هام في الحفاظ على بقاء الإنسان وحمايته من الحاجة في الحياة.

• الصناعة العائلية في ريح الجنوب:

- صناعة الفخار:

صناعة الفخار حرفة يدوية مارسها الإنسان باستمرار في حياته العائلية والاجتماعية منذ القدم، وتعتبر الصناعة الفخارية من أهم أنواع الفن التشكيلي الشعبي التي وظفها " ابن هذوقة" في روايته ريح الجنوب، وذلك لما تجمع هذه المهنة من خيوط رمزية، منها ما يدل على تمجيد العمل والرفع من شأنه وما يدل على التصاق الإنسان بالأرض.

الصناعة الفخارية التي كانت تمتنها العجوز " رحمة" طوال حياتها تؤمن بها إيمانا قويا وتقدها قداسة الآلهة، فقد خلدت من خلال الرسومات التي كانت تنحتها على الأواني تاريخ أمتها وتاريخ القرية والأحداث التي مرت بها والمناسبات الهامة فمن خلال نحتها لشكل الغراب أو الطبل الذي في وسطه شكل منجل هي تؤرخ للعمل البطولي الذي قام به "الحاج حمودة" (الذي باع رأسه ليسقط المطر)³، وهي الأسطورة التي تداولها سكان القرية، فاهتمامها بإتقان هذه الرسومات يدل على اهتمامها الكبير بشؤون مجتمعتها وأهلها.

¹: الرواية، ص 57.

²: المصدر نفسه، ص 34.

³: الرواية، ص 130، 131.

